بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 48 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة لقمان**

التاريخ:06\04\2022 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني**

ما زال الكلام في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.

باعتبار أنه بعض الأحبة أرسلوا بعض الأسئلة المرتبطة بما ذكرته في الدرس السابق فلا بأس بتلخيص المطلب والوقوف عند النقاط الجوهرية:

النقطة الأولى: ذكرت فيها الآية لها ما يشبهها في آيات متعددة، وقرأت بعضها.

النقطة الثانية: أن هذه الآية ورد الاستشهاد بها في رواية معتبرة سنداً في الكافي، وكان محل الاستشهاد الأمر فطري، بأن المعرفة الاعتقادية والمعرفة التوحيدية هي من الأمور الفطرية.

النقطة الثالثة: إذا نظرنا إلى هذا اللسان المتكرر في آيات متعددة قرأنا بعضها، منها –وهو الأكثر– ما صدّر بقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ هذا التعبير يعني أن السؤال ليس سؤالاً فعلياً، بل على تقدير أنك لو سألتهم من خلق؟ سوف يكون الجواب هو الله تبارك وتعالى.

وكما يقولون بأن الجملة الشرطية صادقة حتى مع كذب طرفيها، أي: لو أنك لم تسألهم، ولم يقولوا ذلك، هذه الجملة تكون صادقة. لو طار ذو حافر لطرت لكنه لم يطر، فالجملة الشرطية تكون صادقة حتى مع كذب الطرفين.

وهذه النقطة لم نذكرها في البحث السابق، أي: أن هذه الآيات مصدرة بأداة شرط، وأداة الشرط تدل على الفرض والتقدير لا على فعلية الوقوع.

النقطة الرابعة: إذا لاحظنا مجموع هذه الآيات نجد أن السؤال لا ينحصر فقط بالخالقية حتى يقال: إذن هذا السؤال موجه إلى مشركي مكة، والمشرك لا شك أنه يعتقد بأن الله خالق، بل بعض هذه الآيات كما تسأل عن أصل الخالقية تسأل عن المدبرية، وبالاصطلاح المدبرية يقال لها الربوبية. فهي تسأل عن الخالقية وتسأل عن الربوبية.

من جملة هذه الآيات: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً﴾[1] هذا ليس سؤال عن الخالقية، بل هو سؤال عن التدبير ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾[2] وفي آية أخرى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[3] فإذن كان كلامي عن مجموع هذه الطريقة.

إذن بعض هذه الآيات لا تختص بالخالقية حتى يكون الخطاب فقط موجه إلى المشرك، فنقول نعم، المشرك طبيعي أنه يقول الله هو الخالق؛ لأن المشرك يعتقد بأنه الله خالق، لكن فوض الأمر إلى الأصنام، الشمس، القمر، على حسب ما يعبدون وما يشركون به، بل هذا فيه اعتراف بالربوبية وبتدبير هذا الخالق.

وكما أشرت في الآية التي قالت: ﴿خَلَقَهُنَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[4] أيضاً أشارت إلى اعتراف القوم بالصفات ليس فقط التي ترتبط بمسألة الخالقية.

والرواية الصحيحة السند كما نلاحظ ناظرة إلى أصل المعرفة الاعتقادية، المعرفة التوحيدية لا ترتبط فقط بمسألة الشرك والتوحيد، بل المعرفة التوحيدية أعم من مسألة الشرك والتوحيد في الخالقية، بل عندنا شرك وتوحيد في الربوبية، شرك وتوحيد في الاستعانة، شرك وتوحيد في الأفعال والرازقية وما شابه ذلك.

النقطة الخامسة: بما أنه بنينا في النقطة الثالثة على أن هذه القضية قضية شرطية، والقضية الشرطية ليس من الضروري أن يقع طرفاها خارجاً؛ فبناء على ذلك بضميمة الرواية الصحيحة التي استشهدت بهذه

---

[1] العنكبوت 63
[2] العنكبوت 63
[3] العنكبوت 61
[4] الزخرف 9

الآية للتدليل على المعرفة الفطرية، فحينئذ يمكن لنا نحمل الجواب لو سُئلوا على الأعم من الجواب اللساني والجواب العملي الذي يرجع إلى فطرتهم، والذي يتعامل على أساس هذا الأمر الذي جبلوا عليه وفطروا عليه.

هذا ما أحببت أن ألخصه وأضيفه على ما ذكرته في البحث السابق.

بعد أن بينت الآية أن هؤلاء لو سُئلوا لاعترفوا أمر الله سبحانه وتعالى نبيه قائلاً: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لا شك أن الآية لم تذكر بشكل صريح نعمة يحمد عليها، وحذف المتعلق يدل على التعميم، عندما تقول الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى﴾ فمطلق العطاء مرغوب فيه، أعطى درهماً، لباساً، طعاماً، غير مهم، نفس الإنسان أن يكون معطاء هذا أمر يستحق المدح، فيقولون حذف المتعلق لأجل التدليل على التعميم.

لكن هنا إذا نظرنا إلى السياق لابد أن يكون هذا الأمر بحمد الله تبارك وتعالى يرتبط بهذه الفكرة التي تصدرت بها الآية، أنك لو سألتهم لأجابوا بالإثبات، فهذا يعني أنك تحمل رسالة صادقة، فهذا يستحق الحمد، تحمل رسالة مطابقة للفطرة وليست على خلاف الفطرة، فهذا يستحق الحمد، تحمل رسالة عليها شواهد الصدق لأجل ذلك لا يتجرؤون على الإنكار، فهذا يستحق الحمد، فهذا هو الربط بين قوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وما تقدم في صدر الآية.

ثم ترقت الآية ببل فقال تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُون﴾ هنا قد تأتي شبهة إلى الذهن أن صدر الآية: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ ما تكلم عن طائفة خاصة ممن يخالف الدين، بل أي واحد من هؤلاء إذا سألته يجيبك بكذا، ثم في ذيل الآية وصف أكثر هؤلاء بالجهل، حينئذ قد يقال بأن سؤال الجاهل لا يكون شاهد صدقاً حتى تحمد الله تبارك وتعالى عليه، إذا كان أكثرهم جهّال، وأكثرهم لا يعلمون، فلماذا نسأله؟ لا قيمة له.

مضافاً إلى أنه تبين أنهم يعلمون ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَ اللَّهُ﴾ إذن هم يعلمون، فكيف يكون ﴿أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُون﴾.

فإذا لا بد أنه يكون هناك شيء وراء هذا الأمر الظاهر، وأن قوله في ذيل الآية ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُون﴾ لا يرجع إلى السؤال والمسألة، وإنما يرجع إلى شيء آخر، وهو الترابط بين السؤال وبين الأمر بالحمد،

هذا الترابط ليس من قبيل صرف ترابط تشريعي، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى بين لنبيه طريقاً، فطلب منه على نحو التشريع أن يحمد الله. بل هذا الترابط فوق الترابط التشريعي، هو ترابط تكويني، هو ترابط حضوري.

إذا كان البشر قد جبلوا على الاعتراف والمعرفة فإذن سياق ذلك يقتضي أنه يكون الحمد والثناء الذي تمثله العبادة فقط لله تبارك وتعالى، لكن هذه الملازمة عند الكثيرين لا يعلمون بها. نعم البعض يعلم بها ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُم﴾[5].

فإذن هذا ترابط بين فطرية المعرفة واختصاص المدح والثناء الذي هي مظهر العبودية لله، بالله تبارك وتعالى، هذا الترابط الكثير منهم لا يعلمونه.

فإذن قوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هذا ليس مجرد تشريع وأمر للرسول صلى الله عليه وآله أن يقول الحمد لله، وإنما إشارة إلى تلازم قهري بين أن يكون الإنسان في جبّلته وفي فطرته مجبولاً على المعرفة وعلى التوحيد وعلى العقيدة التوحيدية وأن يكون حامداً لهذا الذي جبل عليه، هذه الملازمة القهرية الكثير منهم لم يلتفتوا إليها، ولذا قد تجد مع اعترافهم بذلك يعبدون ويمدحون ويثنون على غير الله تبارك وتعالى؛ لأنه ﴿أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُون﴾ والبعض منهم أيضاً يفعل ذلك، لكنه يعلم، لكن ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُم﴾[6].

هذا تمام الكلام الذي يرتبط بهذه الآية المباركة.

---

[5] النمل14

[6] النمل14